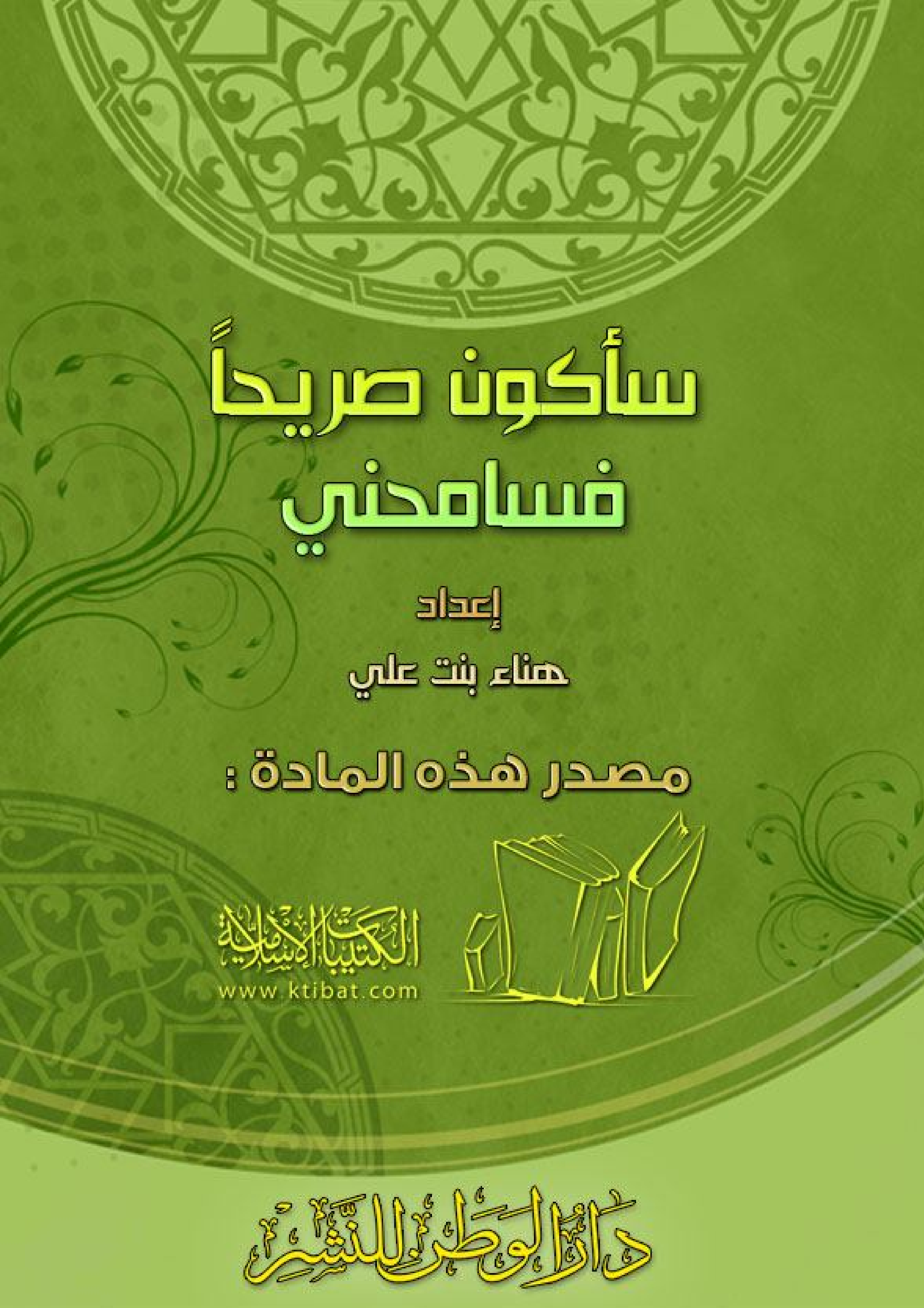

سأكون صريحاً فسامحني
إعداد
هناء بنت علي
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار الوطن للنشر

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعنيه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لــه، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا. وصلى الله وسلم على من بعثه رحمة للعالمين. أما بعد:

فالأولاد هم رياحين الحياة وزهرتها، وهم الشموع التي تضيء البيوت، وتبعث النشوة والحبور في قلوب الآباء والأمهات .. ونعمة الأولاد من أعظم وأجل نعم الله علينا، ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من فقدها، فكم هم أولئك الذين لم يرزقوا أبناءً نراهم يجوبون البلدان، وينفقون الطائل من الأوقات، والنفيس من الأموال؛ بحثًــا عن علاج لمشكلتهم .. وما أن يسمعوا بطبيب حاذق إلا ويطيرون إليه .. بعُدَ مكانه أو قَرُب!

تخفق قلوبهم عند رؤية الأطفال .. وتدمع عيونهم .. وتلــهج ألسنتهم بالدعاء، يسألون الله أن يرزقهم ذرية طيبــة يطمعــون أن يؤنس وحشتهم، وتملأ عليهم حياتهم، وتعقبهم بعد مماتهم. فيكونون بإذن الله امتدادًا لصلاتهم وصيامهم وصدقاتهم وأعمالهم الصالحة .. يأملون أن ينفعوهم بعد أن يوافيهم الأجل، وينقطعون عن حيــاة العمل!

وتلك النعمة (نعمة الأولاد) لا يكتمل بهاؤها، ولا تُجنى ثمارها إلا بالتربية الحسنة، وإلا انقلبت إلى نقمة يصطلي بلظاها الوالدان، ويصبح الأبناء وبالاً عليهم في الدنيا والآخرة.

وإنه لمن الظواهر السيئة التي لا يمكن أن يُغفل أو يتغافل عنها: ظاهرة الإهمال في تربية الأبناء. إذ أن من الناس من ينظر إلى جانب التربية باستخفاف واستهانة، معتقدًا أن الأبناء يتربون بالسليقة والتقليد الفطري، وأن هذا الأمر لا يستحق أدنى عناية أو جهد! ومع هذا فإن أحدهم حينما ينوي شراء أرض أو متجر، أو يريد شراء سيارة أو مسكن؛ فإنه يأخذ وقتًا ليس بالقصير، ويستشير فلانًا، ويُقلّب الأمر مع فلان ممَّن لهم خبرة أو سابق تجربة .. أما بناء عقول الأبناء وتأسيس نفوسهم فآخر ما يفكر فيه أولئك.

فكان من آثار تلك النظرة الخاطئة أن أنتجت أولادًا فاشلين في دراستهم، أو منحرفين في استقامتهم، أو انطوائيين أو عدوانيين أو غير ذلك من الصفات النفسية السيئة التي قد تصاحب الأبناء طوال حياتهم .. وهذه الآثار لا تنعكس على الأبناء أو على الأسرة فقط، بل على الأمة بأسرها؛ لأن الأبناء هم نواة المجتمع، وهم عماد الأمة وسواعدها التي تتكئ عليها، وهم قبل ذلك عرْقها النابض وشريانها المتدفق!

فتربية الأبناء قضية تحتاج إلى اهتمام بالغ خاصة ونحن نعيش في عصر الانفتاح على العالم الخارجي بقضه وقضيضه .. عصر التدفق الإعلامي بشتى صوره وأنواعه. فإن لم يتلق النشء التربية الصحيحة، وإن لم يكون لديهم فكرًا واعيًا يحصنهم من الزلل الذي تفرضه تلك المغريات؛ فستصبح عقولهم كالأوعية الفارغة يُلقى فيها كل شاردة وواردة من الاتجاهات والأفكار .. أو كالأسفنجة تمتص جميع ما يصب عليها دون تمييز بين غث وسمين!

لذا كان لزامًا على الآباء والأمهات أن يحتضنوا أبناءهم ويشبعوهم عاطفيًا ويُصغوا إليهم ويربطوهم بواقعهم الذي يعيشون فيه، ويؤكدوا في عقولهم القناعات الإسلامية القومية بطرق عقلانية تنفذ إلى وجدانهم، بحيث يعملون بها وهم مقتنعون بها تمامًا، قناعة تصل إلى أعماقهم، وتجعلهم يعملون بإرادتهم ورغبتهم؛ إذ أن هناك فرقًا بين من اقتنع عقله فسار في طريقه وهو يملك فكرًا واضحًا عما تنتظر منه أمته، وبين من سار مرغمًا دون قناعة راسخة تهزه وتزعزع فكره أدنى خافقة!

ولكن من المؤسف حقًا أن نجد في مجتمعنا آباء وأمهات لا تربطهم بأولادهم إلا رابطة النفقة والسكنى في بيت واحد! بسبب إصابتهم بقصر النظر وبالسطحية في التفكير نجدهم أيضًا يبالغون بالاهتمام بما يؤمن مستقبل أبنائهم وينفعهم في حياتهم العاجلة، ويغفلون عن الاهتمام بآخرتهم التي هي خير وأبقى!

وإلا فأي خير ينتظر من أمة لا يصلي معظم شبابها؟!

وأي خير ينتظر من مجتمع لم يترب أبناءه التربية الصالحة؟!

وأي خير ينتظر من أبناء تربوا على الجوانب السيئة من الإنترنت والفضائيات؟

إنها والله خيانة، وأيما خيانة! وغش أيما غش! خيانة للأمة وغش للرعية!

ولا شك أن التربية مسؤولية يشترك فيها عدة أطراف، ولكن أهم تلك الأطراف هم الوالدان!

فلا ينبغي لهم بأي حال من الأحوال أن يتخلوا عن دورهم ثم يُلقوا باللوم على الأطراف الأخرى .. أو أن يلغوا آثار تقصيرهم في التربية معللين لذلك بأن هداية الأبناء وصلاحهم بيد الله! فلا أحد يشك أن كل أمر يحدث من خير أو شر إنما هو بتدبير الله، ولكن لا بد مع التوكل من فعل الأسباب.

والأبناء – خاصة – وهم في السنوات الأولى من عمرهم نرى أن أول من يؤثر فيهم هم الوالدان، فخُلُق الوالـــدين وســـلوكهما ينعكس بشكل تلقائي وبصورة واضحة على الأبناء، فإن كان الآباء صالحين ففي هذا خير كبير وكثير، وأما إن كانا أو أحدهما ذا خُلُق رديء أو دين ضعيف، فإنه لا يجنى من الشوك العنب!

وإذا كان رب البيت للـــدف عازفًـــا
فشيمة أهل البيـــت كلـــهم الـــرقص!

ولذا فإنه عندما رأى مالك بن دينار رجلاً يسيء صلاته قال: ما أرحمني لعياله. فقيل له: يُسيء هذا صلاته وترحم عياله! قال: إنه كبيرهم ومنه يتعلمون.

وعن هشام بن حسّان: قال سعيد بن جـــبير: إني لأزيـــد في صلاتي من أجل ابني هذا.

فما أحرى الآباء أن يكونوا قدوة صالحة لأبنائهم، وأن يكثروا من الدعاء لهم قبل وأثناء التربية، فدعاء الوالدين له أثر عجيـــب! وكم من دعوة اهتدى بسببها من ابن أو ابنة كانا تائهين عن جادة الصواب!

والقدوة الحسنة بحدّ ذاتها تربية وإن لم يجهد الآباء أنفسهم. أما إن كان هناك تناقض وازدواج بين ما يأمران به وما يعملانه، أو إن كان أحدهما يأمر بأمر والآخر يناقضه؛ فهنا ستتزعزع ثقة الأبناء بوالديهم، وتهتز صورتهم في نظرهم.

وكذلك أيضًا كثرة الخصومة والنزاع بين الأبوين يؤثر في صحة الأبناء النفسية، وقد يقودهم إلى الضياع!

فالأبناء أشد ما يكونون حاجة إلى إشعارهم بالحب والحنان واحترام الرأي وزرع الثقة في نفوسهم .. أما انتقادهم أمام الآخرين فهذا من شأنه أن يقتل فيهم الطموح والإبداع، ويولد لديهم الشعور بالإحباط والفشل والبلادة وفقدان الثقة بالنفس وبالآخرين.

وقد يشتكي بعض الآباء من اضطراب العلاقة بينه وبين ابنه البالغ .. وقد يكون مرجع ذلك السلطة المطلقة التي قد يمنحها الأب لنفسه؛ فيتعامل مع الشاب كما يتعامل مع أي ملكية جامدة، ملغيًا جميع مشاعر ابنه وميوله ورغباته الخاصة! فنلاحظ أن الابن قد يندفع للاستجابة المؤقتة نتيجة احتياجه لأبيه. فيتصور الأب أنه كسب المعركة ولكن الحقيقة المؤسفة أن الابن من جراء التحكم والصرامة قد يُصاب بالاكتئاب النفسي، أو قد يدفعه ذلك إلى التحدي أو التعسف أو اللجوء إلى إفراغ شحنات التوتر بأي شكل من الأشكال.

ومن أسباب اضطراب العلاقة بين الآباء وأبنائهم وجود حاجز كبير يفصل بين الطرفين بحيث يصعب التواصل الفكري والنفسي،

فالأب لا يفتح قلبه للحديث مع الابن، والابن لا يفتح قلبه للإصغاء؛ مما يزيد التنافر ويعمق الانفصال، فإذا كان الابن محاطًا ببيئة سيئة فإن هذا الأمر قد يختصر عليه مسافة الطريق إلى الانحراف!

ولعل من الحقائق التي يجب ألا تغيب عن أذهان الوالدين أن الشاب في المرحلة الثانوية والجامعة يميل إلى محاولة إثبات ذاته عن طريق استقلاله بالرأي أو التحرر مما يعتقد أنه يقيده. فهو يحب أن يظهر بمظهر المستقل أمام الآخرين وأمام أقرانه بصفة خاصة! فما على الأبوين إلا أن يقيموا جسورًا من الثقة والتفاهم تمكن أبناءهم من الدخول إلى قلوبهم؛ فيطرحوا عليهم ما يشغل فكرهم، فهذا سينمي – بإذن الله – الحب ويقويه، ويجعل الآباء يجنون ثماره عاجلاً أو آجلاً، وكما أن الدلال الزائد يفسد الأبناء؛ فبالمقابل نجد أن الحزم الزائد أو الغلظة والفظاظة في الطبع لا تأتي إلا بنتائج عكسية!

فالله – عز وجل – يقول: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولعلنا ننقل ما قاله سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: يقول – رحمه الله –: «فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم .. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده

دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والودّ والرضا، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس».

نعم هذه صفات خير الآباء وخير المربين وقدوة البشر على الإطلاق، فما أجدرنا أن نقتفي أثره، ونسير على نهجه؛ ليتحقق لنا ما نطمح إليه في ديننا ودنيانا.

وما أحوجنا إلى إقامة دورات علمية في تربية الأبناء يُعلن عنها عبر وسائل الإعلام المختلفة التي هي أيضًا تتحمل جزءًا كبيرًا في بث الوعي وتصحيح الأفهام والتثقيف الأسري، وذلك عبر برامج شائقة وسهلة اللغة.

فعندما تكون الأسر أكثر وعيًا فستخرج لنا – بإذن الله – أجيالاً ذات فكر سليم، وعقل قوي، وعقيدة متينة!

خرج أحمد من المنزل وهو يردِّد: لم أعد طفلاً، أنا حر في حياتي .. ركب سيارته الصغيرة .. أغلق بابها بشدة، ثم مضى مسرعًا لا يلوي على شيء .. استوقفته إشارة المرور .. ضرب بقوة كفيه مقود السيارة، فقد ازداد حنقًا وغيظًا .. أخذ يتلفت يمنة ويسرة .. يتأمل وجوه السائقين للسيارات المجاورة .. كم هائل من السيارات المختلفة قد اصطفت بنظام .. تقل أشكالاً مختلفة من البشر! شباب .. نساء .. أطفال .. شيوخ .. هذه حافلة للنقل الجماعي تكتظ بالركاب .. يقودها رجل آسيوي .. وهذه سيارة صغيرة كسيارته تمامًا يقودها شاب وعلى يمينه رجل يبدو في الأربعين وفي يده مجلة يتصفحها.

- آه .. يا ترى هل في الدنيا رجل كأبي؟! — قالها بصوت مسموع — وفجأة ومن بين السيارات خرج صبي لا يتجاوز العاشرة من عمره .. يحمل بين يديه مجموعة من علب المياه الصحية المبردة .. أشار إليه أحمد مناديًا، فأتى الصبي مسرعًا تعلو وجهه البريء ابتسامة باهتة .

سأله أحمد وهو يمدّ يده ليتناول الماء: ما اسمك؟

- اسمي: سعيد.

- وهل أنت سعيد حقًا؟! — قالها أحمد وهو يتأمل في خيوط العرق التي ارتسمت على جبينه الأسمر.

تبسم الصبي ومد يده بلهفة ليأخذ الثمن ثم مضى يشق صفوف السيارات وينادي بصوته المبحوح: ماء بارد .. ماء بارد.

شرب أحمد نصف علبة الماء، وغسل وجهه المتوهج بنصفها الآخر.

أحس بأن النار التي كانت بداخله قد خمد لهيبها .. أدار جهاز المذياع بحثًا عن أغنية تنسيه ما حدث .. لكنه اهتز من مكانه فزعًا حيث تعالت أصوات مزامير السيارات من خلفه.

انطلق يجوب شوارع المدينة بلا هدف وهو يردد كلمات لأغنية حزينة .. وفي أحد الأحياء فوجئ بأن سيارته تتوقف .. ركز نظره على الشاشة الصغيرة التي خلف المقود، فعضَّ على شفتيه بقوة .. آهٍ لقد نفد الوقود!

أخذ يتحسس جيبه وقد تذكر أن المحطة قريبة من المكان لكنه لم يجد في جيبه سوى علبة السجائر وبقايا نقود معدنية .. نزل من سيارته .. غمغم في ضيق .. موقف لا أُحسد عليه!! أخرج سيجارة وأشعلها لكنه سرعان ما رماها وداسها بكعب حذائه .. إنه يشعر بضيق شديد لا تُذهبه سيجارة ولا غيرها .. أطلق آهة من أعماقه وأخذ يتمتم بكلمات مخنوقة: من سيأتي بوقود؟! بل من سيعطيني النقود؟! أُفٍ .. ما أقسى هذه الحياة!! بل ما أقسى ذلك الأب!

رمى بجسده المنهك على مقعد السيارة وأراح رأسه على مقودها وصار ينتحب بشدة .. وفي تلك الأثناء سمع طرقًا خفيفًا على زجاج السيارة .. رفع رأسه .. وإذا برجل طويل ذو لحية كثة يقف بوقار مقابل باب سيارته.

أسرع بفتح الباب بإحدى يديه بينما يده الأخرى تتناول منديلاً يمسح به وجهه .. وقد تزاحمت الظنون والأسئلة في ذهنه، وبدا الارتباك واضحًا على قسمات وجهه.

بادره الرجل قائلاً وهو يمد يده نحوه ليصافحه: السلام عليكم .. هل تحتاج إلى مساعدة مني أيها الحبيب؟!

أحمد لم يزل مندهشًا: وعليكم السلام كما ترى الوقود نفد!

انتظرني لحظة .. فالمحطة قريبة من هنا.

لم يلبث سوى دقائق .. ثم عاد وفي يده جالون مليء بالوقود وفي يده الأخرى كيس من الأشرطة والمطويات .. وضعهما بين

يدي الشاب ثم قال وهو يبتسم ابتسامة المشفق: تفضل يا بُـــني .. هل تحتاج إلى أمر آخر؟

لا .. أشكرك كثيرًا.

لا شكر على واجب يا بُني .. تفضل لشرب الشاي ســويًا .. منزلي هنا على اليمين – قالها وهو يشير إلى نهاية الشارع – كـــان أحمد مطأطئ الرأس لا يجد في نفسه المتعبة رغبة في الكلام أو الطعام والشراب، إذ بداخله بُركان من الألم يوشك أن يثـــور، فـــاكتفى بالإشارة بكفه بعدم الموافقة.

كان الرجل قد وضع يده على كتف الشاب وهو يفكر من أي طريق يأتيه، فقد أحس بحاجته الشديدة للنصح والتوجيه .. لكنـــه تراجع وفضل أن يغادر المكان، ولم يكن في وسعه إلا أن أعطاه اسمه ورقم هاتفه بعد إلحاحه عليه بألا يتردد في الاتصال في أي وقـــت شاء.

مضى الرجل .. لكن أحمد بقي في مكانه وبصره يتبعه حـــتى دخل منزله .. عاد ببصره إلى ذلك الكيس .. أخذ يقلب ما فيـــه باستغراب شديد .. كان الكيس يحوي عددًا من الأشرطة ومجموعة من المطويات النافعة .. وبدافع الفضول لا أكثر تنـــاول إحـــدى الأشرطة ووضعه في جهاز التسجيل وعاد إلى التجوال في الشوارع مرة أخرى، لكنه في هذه المرة أصبح أكثر هدوءاً .. حيث كـــان يستمع بلهفة إلى أحد الدعاة في محاضرة يخاطب فيهـــا الشـــباب بأسلوب سهل جميل، وبعبارات جذابة يخالطها المرح الجاد والدعابة

اللطيفة .. كان مصغيًا إلى حديثه بكل حواسه! فإن لم يفهم بعض العبارات أوقف الجهاز وأعادها مرات ليستوعبها ويفهمها .. يبتسم تارة ويعبس بوجهه تارة .. وما أن انتهى الشريط حتى وجد نفسه بالقرب من منزل والده.

توقف لحظات .. لم يجرؤ على الدخول .. فعاد من حيث أتى .. وضع شريطًا آخر وقد وصلت كلمات الشريط السابق شغاف قلبه، وبدأ بالإنصات مرة أخرى بعد أن استنفر جميع قواه الذهنية .. كان الحديث هذه المرة حول التوبة وقصص التائبين .. تابع الشريط حتى نهايته ثم ارتحل بفكره إلى وضعه المحزن .. تناول الشريط الثالث وقد أخذ منه التأثر كل مأخذٍ!! فقال محدثًا نفسه:

هذا الكلام أسمعه لأول مرة في حياتي .. كنت أعتقد أن أشرطة «الكاسيت» لا تحتوي إلا على الأغاني فقط! لقد بدأ الإيمان يدب شيئًا فشيئًا في عروقه، فراح يراجع حساباته .. يقلب فكره في سبب مجيئه إلى هذه الحياة .. أخذ يفكر بعمق بحقيقة هذا الدين .. بعبادة الله التي خلق الله الخلق من أجلها .. يفكر بمصير البشر بعد الموت .. في الدار الآخرة.

قطع عليه حبلَ تفكيره صوتُ نغمات موسيقية تصدر من درج سيارته الأيمن .. فتح الدرج وتناول هاتفه الجوال .. نظر إلى الرقم المتصل .. إنهم أصدقاؤه .. لقد تأخر على غير عادته .. لكنه لن يذهب .. لم يكن يشعر برغبة لرؤيتهم أو الجلوس معهم .. ففي وجدانه أمر آخر.

كان يبحث عن مكان هادئ .. يبحث عن مكان يلوذ بـه .. مكان يخلو بنفسه ليقوم بتصفية شاملة!! ليصحح مع نفسه تلك المفاهيم والأفكار التي تزاحمت في مخيلته.

وجد بغيته في إحدى الحدائق العامة .. استلقى على ظهره فوق تلك الحشائش، وبعد فترة من التفكير أخذ يستجلب النوم متوسدًا إحدى يديه.

وفي الصباح .. أرسلت الشمس أشعتها على ذلك الكون الفسيح، فوقعت على جسده الممدد .. أحس بدفئها فتح عينيه التي لم تستوف نصيبها من النوم فركها وهو يتثاءب ثم نهض بتثاقل شديد واستند بظهره إلى جذع شجرة كبيرة لا يدري كيف استطاع أن ينام في هذا المكان؟! نظر حوله كان منظر الحديقة يبدو رائعًا .. الأزهار منتشرة هنا وهناك .. يهزها نسيم الصباح فتتمايل بنشوة فوق الأغصان الصغيرة .. وهذه الفراشات الملونة تنتقل بزهو من غصن إلى غصن؛ لتقبل ثغور تلك الأزهار المختلفة.

وفي الزاوية الشمالية يبدو ذلك الشلال المائي الذي يجري بخفة فيغوص في أحضان تلك الصخور البيضاء المرصوصة بإحكام، ثم يعود مرة أخرى ليضفي على الحديقة جوًا لطيفًا؛ فيفوح عطر الصباح في المكان .. سمع أسراب الطيور تزقزق فرفع رأسه ليراها، وتمنى لو كان طائرًا حرًا يسبح في الفضاء، يستنشق عبير الحرية وراحة البال .. لا مشاكل .. لا مسؤوليات .. لا حساب!!

قطع عليه تلك التأملات أصوات أتت من مدخل الحديقة ..

التفت .. مجموعة من الأطفال قد أقبلوا يتراكضون وقد علت ضحكاتهم، ثم امتطى كل طفل أرجوحة وأخذ يهزها بسعادة.

تمنى لو كان صغيرًا مثلهم .. تنهد قائلاً: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .. هزته هذه الكلمات التي جاءت على لسانه لأول مرة .. لكنه شعر بلذة غريبة وهو ينطق بها .. فعاد يكررها .. أراد أن ينهض .. فحرك نفسه مستندًا على كفه الأيمن .. لكنه تذكر شيئًا .. تذكر شيئًا جعله يعود إلى مكانه، وتعود إليه كآبته، فصار يفتش في ذكريات حياته .. يفتش في ذكريات حياة عاشها بين قلب وطموح وتطلعات متزاحمة .. ثم راح يفكر في هذا العالم .. في هذا الفضاء الواسع الذي يملأه ضجيج الحياة وصخبها .. وفي تلك الأثناء .. أقبل رجلٌ من أقصى الحديقة ومعه طفل صغير .. تتبعهما بنظره حتى وصلا إلى الأرجوحة القريبة .. كان الطفل متعلقًا بيد والده، ثم أفلت من يده فجأة وهو يشير بحبور إلى الفراشات الملونة .. جرى مسرعًا فتعثرت قدمه واصطدم بالشاب المتكئ على جذع الشجرة .. اتسعت حدقتا الطفل وهو ينظر إليه بذعر، ثم انفجر باكيًا .. آلمه بكاء الطفل فنهض مسرعًا ورفعه بكلتا يديه وناوله والده الذي أقبل معتذرًا.

غادر الحديقة دون أن يُعير الرجل اهتمامًا .. ففكره لم يزل مشغولاً بأحداث الأمس!

سار بمحاذاة الحديقة مشيًا على قدميه .. كان الطريق من بوابة الحديقة إلى مكان وقوف سيارته واسعًا ونظيفًا .. تظلله الأشجار

من الجانبين، ومع ذلك كان يمشي مطرقًا برأسه كأنــه يخشــى أن تخترق نظرات الأشجار صدره وتكشف ما يعتلج فيه .. على بُعــد خطوات كانت دورة المياه التابعة لمسجد الحي، دلف إلى الداخل .. وبينما هو يجفف وجهه ويديه إذ سمع.

السلام عليكم.

التفت نحو الصوت .. كان عامل النظافة ينتظر خروجه وهــو يحمل أدوات التنظيف .. ردّ عليه أحمد ببرود شديد.

عليكم السلام.

ظل واقفًا يلاحظ العامل .. يتفرس في بشرته السمراء وقــدّه النحيل ويديه المعروقتين.

لن أكون أكثر شقاءً من هذا المسكين!

حدث نفسه ثم أردف

ولماذا افترض أنه شقيّ؟!

إنه يتقاضى مرتبه في مطلع كل شهر .. صحيح أن مرتبه قليل، ولكنه يزيد عن مصروفه بكثير .. ثم إنه يسكن هنا مجانًــا .. إذًا لا ينقصه شيء!

المسجد لم يُغلق – قالها العامل بلغة عربية مكسرة، فقد استنكر طول وقوفه وشرود ذهنه!

أفاق أحمد من هواجسه وخرج بتثاقل شديد، وقبل أن يهــم بالدخول إلى المسجد سمع صوتًا نديًا شجيًا أخذ بمجامع قلبه وأطربه

.. وقف بجوار الباب يستمع .. إنه صوت قارئ يرتل كلام الله**!!**

كان الخجل وحب الفضول يتصارعان بداخله .. يريد أن يرى بعينيه صاحب الصوت .. لكن الخجل وهيبة المكان يمنعانـــه مـــن ذلك.

فجأة اصطدم به أحد الشباب الذي قد خرج من باب المسجد مسرعًا .. لكنه توقف وسلم على أحمد وهو يعتذر ويعلل أســـباب عجلته.

معذرة يا أخي الكريم .. فقد تذكرت أن سوق الجمعة قارب على الانتهاء، وقد طلب مني الوالد قضاء بعض الأغراض من هناك.

كانت الدهشة قد عقدت لسانه .. لم ينتبـــه لنفســـه، كـــان الواجب عليه أن يعتذر هو بسبب وقوفه الخاطئ.

أخذ يقلب ذاكرته .. لم يسبق أن رآه من قبل، ومع ذلك فإنه يحدثه وكأن بينهما سابق معرفة بشاشة وجهه ملابســـه البيضـــاء المعطرة خُلقه الرائع ولطافة كلماته كل هذه الأمور مـــلأت قلبـــه إعجابًا به.

أخذ يشم كفه بعمق .. رائحة العود لم تزل من أثر مصافحته.

الحقيقة أن شكلي ورائحتي سيئة .. سيئة جدًا .. الحمد لله أنه كان مستعجلاً – قالها وهو ينظر إلى قميصه الأزرق الذي قد رسم عليه العرق خرائط بيضاء واضحة، أما البنطال فقد صـــبغته أرض الحديقة بألوان متداخلة.

قرر ألا يدخل إلى المسجد فانسلَّ مسرعًا.

جلس في سيارته حائرًا يترقب المارة .. جموع غفيرة من العمال على اختلاف جنسياتهم قد أتوا إلى السوق .. منهم داخل ومنهم خارج يحمل مجموعات من الأكياس.

هذا هو يوم إجازتهم – هؤلاء قد تحلقوا أمام طاولة «الشاورما»، وأولئك قد اصطفوا أمام المخبز ورائحة الشواء تعبق في المكان، تخالطها رائحة الدخان .. تحركت في نفسه الرغبة في التدخين .. أشعل سيجارته .. وبينما هو ينفث دخانها في جوفه الفارغ أحس بالآم في بطنه مع حُرقة شديدة في صدره.

آهٍ أريد أن أتوب – قالها بصوت مسموع وهو يضرب بكفه على صدره المشتعل .. وبدا له وجه ذلك الرجل وهو يقول: لا تتردد .. اتصل في أي وقت شئت!

نظر في ساعته إنها تشير إلى العاشرة صباحًا.

هل هذا الوقت مناسب أم لا .. لكنه شعر أن شيئًا ما بداخله يحثه على الاتصال.

أخذ يضغط على الأرقام بتردد شديد وقبل أن يكمل الأرقام أغلق الخط!

كيف سأتحدث مع رجل غريب لم أقابله إلا مرة واحدة في حياتي .. كيف سأبدأ الحديث معه؟!

لكنه رجل ناصح مخلص وتبدو عليه سمات الصالحين .. لكني

لا أجرؤ على محادثته لعلي أذهب إلى ثامر .. أشعر بأنه أقرب الأصدقاء إلى قلبي فكم مرة حدثته عن مشكلاتي الخاصة ولكن كيف سيستقبلني الآن وهو لا ينام إلا بعد السادسة صباحًا؟!

لا بد أن اتصل بذلك الرجل الطيب – قالها وهو يضغط على الأرقام بجد .. سمع الصوت على الطرف الآخر يقول: نعم.

أحمد بصوت متهدج: أهلاً أبو محمد .. أنا .. أنا أ... أحمد.

أهلاً وسهلاً بك يا أحمد

سكت برهة لا يدري ما يقول! لكن أبو محمد بادره بالسؤال:

أحمد رفيقي بالأمس؟!

نعم بودي أن أتحدث إليك ولكن .. ولكن هل الوقت مناسب؟!

مناسب .. ومناسب جدًا .. حياك الله يا أحمد في أي ساعة، هيا .. أنا في انتظارك.

استقبله أبو محمد بحفاوة بالغة .. دخلا سويًا إلى فناء الدار وفي قلب كل منهما آمال ورغبات.

كان أحمد يمشي وهو لا يرى ما حوله، فدموع الفرح والحزن قد اختلطتا على خده؛ فتعتمت الرؤية أمام عينيه.

أما أبو محمد فلسانه لا يفتر عن ترديد عبارات الترحيب الحارة.

لم يشعر أحمد إلا وهو في وسط غرفة الاستقبال، والرجل يشير إليه بالجلوس، ثم خرج مستأذنًا لإحضار القهوة.

بقي أحمد في مكانه دون حراك يسأل نفسه: ما الذي جـــاء بي إلى هنا؟ هل أنا أعيش حلمًا أم حقيقة؟!

أخذ يلتفت حوله ثم رفع رأسه إلى السماء:

يا رب .. يا رب .. إني تائب إليك .. يا رب سهِّل.

بعد أن هدأت نفسه قليلاً جال ببصره في أنحاء المجلس يتأمـــل الأرائك ذات الجوانب المطرزة .. وتلك المخدات الصغيرة المنثـــورة عليها بألوانها المتناسقة مع لون السجاد.

وقع بصره على تلك الكتيبات الصغيرة بعناوينها الجذابة تـــزين المنضدة الزجاجية.

همَّ بالنهوض ليراها عن قرب لكنه سمع صوت قادم.

عاد أبو محمد وكلمات الترحيب تسبقه كان يحمل بين يديـــه أباريق القهوة والشاي وضعها بهدوء ثم ناول أحمد فنجان قهوة وهو يقول: كم أنا مسرور بزيارتك يا ولدي.

اعتدل في جلسته وقال بصوت خجول متقطع: و... و...أنـــا كـــ... كذلك

كان أبو محمد ينظر إلى الشاب الذي أمامه بشـــفقةٍ كـــبيرة، ويفكر في كيفية الدخول إلى عالمه الغامض!!

فقال له بتلطف: أشعر أن الوقت مناسب لنتحدث .. ألـــيس

كذلك يا أحمد؟!

لا .. لا شيء .. لدي مشكلة .. مشـــ...مشكلة فقط .. قالها وهو ينظر إلى الباب وكأنه يتمنى لو خرج منه!

لم يزل الرجل يتأمل في وجهه النحيل الشاحب وشفتيه المائـــل لونهما إلى السواد، وخصلات الشعر المتدلية على جبينه.

إني أرى في أعماقك شيئًا ما .. يريد أن يخرج – قالها أبو محمد بمرح وهو يضع يديه على كتفه بحنو.

تنهد الشاب وقال وهو يعصر صدره بيديه:

صدقني يا أبا محمد لا أدري ما أقول .. ولا أدري من أين أبدأ الحديث!! ثم وضع فنجان القهوة على المنضدة قـــائلاً: بـــالأمس خرجت من بيتنا وقد قررت ألا أعود.

أبو محمد متعجبًا: ولِمَ؟!

والدي في الحقيقة .. في الحقيقة هو مشكلتي .. إنه لا يُطاق .. هو يعاملني وكأنما أنا طفل صغير لا بل كأنني آلة خرساء تعمل دون إحساس! قالها وقد اختنق صوته بالبكاء.

هوِّنْ عيك يا بني .. لا داعي للضيق أو القلق .. فالأمر أقل من ذلك، والشيطان يا حبيبي يلعب دورًا أكـــبر في تضـــخيم حجـــم مشكلتك .. لكن قل لي منذ متى وأنت تعيش هذه المشاعر؟!

أطلق زفرة حارة ثم قال: لا أدري .. لكن منذ عرفت نفسي لم أسمع منه كلمة طيبة .. كلمة ناصحة إنه أبٌ قاسٍ بكل ما تحملـــه

هذه الكلمة من معنى، قلبه كأنما قُدَّ من حجر!!

هز أبو محمد رأسه مهونًا الأمر:

يا حبيبي .. ألم أقل بأن الشيطان له دوره في المشكلة! ثم إنك يا بني قد أصبحت رجلاً الآن أصبحت رجلاً بالغًا عاقلاً تدرك ما حولك لقد تخطيت يا بني مرحلة عدم الفهم مرحلة قصر النظر.

قاطعه أحمد: هذا ما يقلقني هذا بيت القصيد هذا ما أشعر به هذه مشكلتي ولكنه لا يشاركني هذا الشعور.

وبكل هدوء يكمل أبو محمد حديثه:

دع عنك ما مضى يا بني حاول أن تتناساه حاول أن تتجاهل كل ما سبق، وابدأ من جديد ابدأ من الآن يا بني. افتح مع نفسك صفحة جديدة أحسن علاقتك بربك أولاً ثم مع والدك ومع الناس جميعًا فأنت الآن في مقتبل العمر في أجمل أيام حياتك في السن الذهبي — كما يسمونه — أنت الآن في ذروة نشاطك الذهني والجسدي. المستقبل لم يزل أمامك، وغدًا بإذن الله ستصبح ربًا لأسرة .. ستصبح أبًا .. وستكون لك زوجة وأبناء. فكر في نفسك كيف تحب أن يعاملك أبناؤك .. كيف سيقابلون معروفك عليهم وحبك لهم؟! أما أنت فلا شك أنك ستحبهم وتلطف بهم، ولكن إياك والدلال الزائد فإنه يفسد الأبناء — قالها وهو يضحك.

انفرجت شفتا أحمد عن ابتسامة خفيفة .. ثم رفع رأسه ينظر إلى أبي محمد وكأنه يستحثه على الكلام.

الآن يا بني أنت تستقبل فجرًا جديدًا. فجرًا تبدأ معــه رحلــة العودة إلى الله وما أجملها من أيام، وما أجملها من رحلــة، رحلــة التوبة من الذنوب. فهنيئًا لك هذه الرحلة، هنيئًا لك، فالتائب مــن الذنب كمن لا ذنب له، ولتحمد الله التواب الرحيم الذي يبســط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مســيء الليل .. لتحمد الله الجواد الكريم الذي يقبل توبة عباده، ويعفو عن سيئاهم مهما عظُمت، وفوق ذلك وزيادة عليه فإنه يبدل ســيئاهم حسنات .. الله أكبر، أبشر يا بني، وأبشر مرة أخرى بمحبة الله لك.

فهو القائل – سبحانه –: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّــوَّابِينَ وَيُحِــبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢].

كما أنه – سبحانه – يفرح بتوبة عبده أشد الفرح .. أشد من فرح الذي فقد راحلته وعليها طعامه وشرابه ثم وجدها!

فاحمد الله يا بني .. احمده أن فتح لك باب التوبة، ويسر لــك أسباها في الوقت الذي حَرم منها الكثيرين فظلوا يتخبطون في ظلمة المعصية، ويتعثرون في وحل الفساد.

لمعت عينا أحمد وقد تملكه شعور غريب، وأخذ يردد بصــوت منخفض: الحمد لله .. الحمد لله .. وانحنى ليضع الفنجان الذي في يده.

قرَّب إليه أبو محمد فنجانًا آخر وهو يواصل نصــحه: ولكــي تكون توبتك صادقة يا بني لا بد أن تتضمن شروطًا:

أولاً: الإقلاع عن الذنب وهذا يعني أن تنتشل نفسك من كل

معصية، وتبتعد عن كل شيء يذكرك بالذنوب السابقة، وهنا ستُقلع بإذن الله إقلاعًا تامًا.

ثانيها: العزم على عدم العودة إلى المعصية، فبعد إقلاعك وابتعادك اعزم عزمًا أكيدًا على ألا تعود إلى سابق عهدك مهما كانت الظروف والأحوال .. وأنى لك أن تعود وقد تذوقت حلاوة الإيمان ووجدت طريق الجنان!

وثالثها: الندم على ما فات، فإذا حدثتك نفسك بما كنت تفعله من قبل، فاندم ندمًا شديدًا، وأكثر من الاستغفار وألح على الله بالدعاء بأن يثبتك على ما أنت عليه من الخير، وأن يعصمك من الذنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها.

وما أن انتهى أبو محمد من حديثه حتى شعر أحمد بأن ثقلاً هائلاً قد انزاح عن كاهله .. فقام من المجلس مستأذنًا بالخروج، فقد حلقت روحه في عالم جديد .. تبعه أبو محمد ولسانه يلهج بالثناء على الله الذي جعل قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء، ومدَّ يده إلى أحمد مودعًا .. شد كفه ثم هزها بقوة وهو يقول:

أوصيك يا بُني بمفارقة كل قول وفعل لا يرضي الله .. فإن رضي الله عنك فسوف يُرضي عنك والدك .. وبيني وبينك ساعة السَّحَر، ادعُ الله لي وسأدعو لك بإذن الله.

مضى أحمد في طريقه وبقيت صورة ذلك الرجل في مخيلته، بقيت صورته وهو واقف يلوح بيده .. آه، لم أكن أعلم أن في

الناس مثل هذا الإنسان .. كم هو ثاقب البصر، قوي الجأش عالم بمداخل الشيطان، إنه يتحدث إليَّ وكأنه يغوص في أعماقي لينتشلني مما أنا فيه.

قادته سيارته من حيث لا يشعر .. لا يدري كم مضى من الوقت! آه هذا منزل ثامر تذكر جلسات الشباب .. المباريات .. البلوت .. العود .. الغناء .. التدخين.

ترددت في مسامعه هذه الكلمات: الإقلاع عن الذنب، العزم على ألا يعود، الندم على ما فات.

عاد أدراجه وقد ازدحمت الخواطر والأفكار في ذهنه، وبدأ يسأل نفسه: هل أنت تائب حقيقة؟! ثم يجيبها بسرعة: نعم .. نعم أنا تائب ..لا .. لن أعود إليهم .. سأقطع صلتي بهم .. يا رب ساعدني، يا رب أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان .. آه إلى أين أذهب؟! هل أذهب إلى منزلنا؟!

نعم .. لا بد أن أذهب .. سأطبع على جبين أبي قبلة حارة .. لا، بل قبلات! ولِمَ لا وأنا قد تبت إلى الله؟!

سأعتذر إليه، سأبشره بتوبتي .. فهل يا تُرى سيفرح؟!

وهل سيبادلني الشعور؟ آه، ها أنا أمام بوابة المنزل.

يا رب يا معين – لم تكن سيارة والده موجودة –.

تذكر أنه لا يعود إلا في وقت متأخر .. لا ينام إلا قبيل الفجر!

دخل من تلك البوابة الضخمة بهدوء .. هناك أنوار مضاءة

بالداخل لكن ليس ثمة حركة .. تسلل إلى غرفته في الطابق الثاني، دخلها بخطى بطيئة هادئة شعر وكأنه يدخلها لأول مرة! كأنه لم يدخلها منذ زمن! فتح دولابه الخشبي يريد أن يبدل ملابسه ويغتسل .. وبعد استحمامه تمدد على سريره واضعًا كفيه في تشابك تحت رأسه وترك بصره يجول في أنحاء غرفته، أحس كأن جدرانها المطرزة وستائرها المخملية وساعتها الحائطية وتلك المكتبة الصغيرة، كلها تحييه وتبارك له توبته .. وكأن ذلك القنديل المتدلي وسط غرفته يهتز فرحًا بعودته!

تمنى لو طلع الصباح ليرى والدته التي لا شك أنها ستكون قلقة عليه، فهي الأخرى مثقلة بالهموم والمسؤوليات.

تمنى لو جاء الغد ليرى أخويه صالحًا وماجدًا اللذين غيبتهما غمامة الامتحانات، فلم يعد يراهما إلا على مائدة الغداء أحيانًا .. بدأ يتثاءب .. وأخذ النوم يداعب أجفانه الذابلة، فأطفأ المصباح والتف بلحافه.

وفي تلك الأثناء سمع وقع أقدام ثقيلة في الخارج يصاحبها سعلات شديدة متكررة .. اقترب الصوت شيئًا فشيئًا .. كاد قلبه أن يخرج من بين أضلاعه، وبدا له وجه أبيه الغاضب وهو يزمجر ويشتم ويلطم، أخذ صدره يعلو ويهبط، وازدادت سرعة ضربات قلبه.

أحس أن قبضة قوية دفعت الباب فانفتح .. نهض من سريره هلعًا ويده تتحسس مفتاح المصباح.

جاءه صوت والده قويًا: أنت هنا يا أحمـــد .. أيـــن كنـــت بالأمس؟

نـــ.. نـــ.. نعم يا أبي أنا هنا .. أنا آسف – قالها وهو يلملم شتات فكره، ويستجمع قوته على الكلام؛ ليعتذر ويقبل رأس أبيه .. لكن والده أشار إليه بالرجوع قائلاً:

عُد إلى نومك! إن كنت آسفًا حقًا فلا تخـــرج عـــن أمـــري وطاعتي.

وقبل أن يستدير راجعًا .. أشار بسبابته متوعـــدًا – إيـــاك أن تبتعد كثيرًا عن المنزل، فلن أكون متواجدًا خلال هذا الشهر.

أراد أن يقول .. أن يتحدث فلم يستطع بينما تدحرجت دمعة ساخنة أحس بحرارتها على وجنتيه .. بقي مشدوهًا ينظر إلى والده وهو يخرج ويغلق الباب خلفه .. ضرب بكفيه على رأسه، وارتمى على سريره وأخذ يرفس كالمذبوح: يا رب .. يا رب .. يا رب .. إني تائب إليك .. يا رب ساعدني

أحس أنه في واد ووالده في وادٍ آخر .. وادٍ بعيد .. بعيد جدًا. مما زاد ضيقه وجعل النوم يفارق عينيه إلى غير رجعة .. فبدأ يتذكر أحداث الأمس .. تذكر جميع الأحاديث التي سمعها من الأشـــرطة، تذكر قول أبي محمد: «إن رضي الله عنك فسيرضي عنك والدك .. وبيني وبينك ساعة السَّحر».

توقف عند هذه الكلمة .. نظر إلى ساعته .. هل هذه ســـاعة السحر؟!

قام ليتوضأ ويصلي ويدعو وفي قرارة نفسه أن الله لن يتخلى عنه أبدًا .. فالله يحب التوابين .. ويحب المتطهرين.

ها هو يناجي ربه ويتضرع إليه فيزداد يقينًا وإيمانًا به وتوكلاً عليه .. لقد تحولت جميع حواسه إلى التلذذ بعبادة ربه .. وما أجملها من لحظات حينما تمتزج عبارات الرجاء بعبارات الخوف والذل للخالق العظيم .. يناجي ربه وكأن ضياء يشرق من كلماته ليتصل بالسماء فترتفع روحه لتحلق به، ليبلغ الجنان والأنهار .. ليبلغ الحور والأرائك والولدان.

وفي صبيحة ذلك اليوم .. وفي غرفة الطعام .. كان يجلس مسترخيًا على الأريكة وبيده إحدى المطويات .. يقرأها بتمعن .. يقف برهة ليستوعب ما يقرأ ثم يعود مرة أخرى .. بينما كانت والدته تأتي وتذهب .. تقدم له طعام الإفطار، لاحظت على ابنها تغيرًا واضحًا .. تغيرًا لا تدري ما هو سببه!!

كانت تختلس النظر إلى الورقة التي بين يديه وهي تنحني لتلتقط بعض الألعاب المتناثرة على السجاد وفي ذهنها استفهامات كثيرة .. كان أحمد منهمكًا في القراءة والتفكير .. لم يكن يكترث بما حوله.

لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به
ومن حديثك في أعقابها حادي

رفع رأسه فجأة إذ سمع ضحكة عالية أطلقتها شقيقته ذات

الأعوام الأربع، والتي أقبلت بمرحها الطفولي والبراءة تتلألأ في عينيها العسليين. أطلق ما في يده وجذبها إليه ليضمها إلى صدره؛ فأزاحته بيديها الصغيرتين وهي تحملق في وجهه باستغراب، ثم سألته ببراءتها المعهودة متحسسة رأسه:

أحمد .. أين شعرك؟!

عادت الأم تحمل بإحدى يديها كأسًا من العصير الطازج، وفي اليد الأخرى طبقًا من الكعك المشكل .. وضعتها أمامه قائلة: لعل هذا أشهى إلى نفسك يا ولدي.

تناول كأس العصير ولسانه يلهج بالدعاء وكلمات الشكر لوالدته التي وقفت تنظر إليه بسرور.

ارتفع رنين الهاتف من الغرفة المجاورة فأسرعت للرد عليه، كانت المتصلة إحدى جاراتها القديمات .. دارت بينهما أحاديث طويلة .. أخبار اليوم والأمس .. والغد!! أنباء كثيرة كلها تبثها تلك المرأة كل صباح، إما عن طريق الهاتف أو عن طريق جلسات الضحى .. كانت أمه كثيرًا ما تركن إليها وتسعد بمحادثتها؛ لتمتص آلامها وتسد الفراغ الذي يخلفه زوجها بسبب تشنجه وتسلطه وكثرة أسفاره.

مضت قرابة الساعة .. لكن المكالمة لم تنتهِ بعد.

يا لها من امرأة ثرثارة – قالها وهو لا يزال يتذكر أحاديثها يوم أن كان صغيرًا يجلس بجوار والدته فاغرًا فاه مدهوشًا من تتابع كلماتها وغرابة قصصها وأخبارها!!

كانت الصغيرة مسترسلة أيضًا في حكاياتها المضحكة .. تمنى لو أصغى إليها، ولكن في نفسه أشياء وأشياء.

استغفر الله .. استغفر الله .. استغفر الله

«**اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يـــا ذا الجـــلال والإكرام، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وله الملك، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**».

وبكل خشوع وطمأنينة نفس يمضي أبـــو محمـــد في التـــهليل والذكر والاستغفار بعد صلاة المغرب .. وما أن فـــرغ وانفـــض المصلون حتى اقترب منه أحمد: السلام عليكم يا أبا محمد.

التفت إليه بلحيته الكثة وشخصيته المهيبة وبابتسامته ووجهـــه البشوش، وبكل سرور وبشر رد عليه: وعليكم السلام ورحمـــة الله وبركاته .. كيف حالك يا أحمد؟!

الحمد لله .. أنا بخير .. لقد اشتقت إلى رؤيتك .. اشتقت إلى حديثك ونصائحك القيمة.

استندا إلى الجدار وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث.

دارت بينهما أحاديث كثيرة منها أحاديـــث حـــول متابعـــة المباريات، والتدخين وغيرها .. كانا يتحادثان وقد تحطمت بينهما كل الحواجز، فصارا يتهامسان كصديقين حميمين!

أخرج أبو محمد من جيبه عود السواك وناله أحمد وهو يسأله: أظنك يا عزيزي قد أقلعت تمامًا عن التدخين.

لم يتوقع أحمد هذا السؤال .. لكنه أجاب وهو يخفي دهشته: في الحقيقة لا زال هذا الأمر يقلقني .. لم أزل بين مدّ وجزر!

أجابه أبو محمد وهو يتأمل في وجهه الذي قد أصبح أكثر وضاءة من ذي قبل، فها هو يتحدث دون تعلثم وارتباك، وحيوية الشباب تتدفق من عينيه.

معلوم يا بني أن الشيطان سيضاعف جهوده ويكلف أتباعه من شياطين الإنس والجن ليعيدك إلى ماضيك أو على الأقل ليثبطك عن المسير .. ليصدك عن الصراط المستقيم .. طريق الجنة الذي تسأل ربك في اليوم عدة مرات أن يهديك إليه .. فأنت بحمد الله تقول في كل ركعة من صلاتك: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ .. فسيهديك الله إلى صراطه ما دمت مطيعًا لأوامره مجتنبًا لنواهيه.

وما دمت تطيب مطعمك ومشربك وملبسك فلن يخيب الله رجاءك .. ولكن يا أحمد ألحّ على الله بالدعاء وجاهد نفسك واقهر هواك .. ومع هذا وذاك لا بد- يا بني- أن تستشعر مراقبة الله لك .. فلا يراك حيث نهاك .. ألست تستحي أن تدخن بحضرة من تهابه من الناس؟!

تنهد أحمد وكأنه يريد أن يقول شيئًا، ولكنه سكت .. كأنه يريد أن يختار الكلمة المناسبة ليترجم ما في نفسه من المشاعر.

كان أبو محمد ينظر إلى عينيه المتألقتين متلهفًا لإجابته، لكنه أطال الصمت .. فسأله مرة أخرى:

اسأل نفسك: هل هؤلاء البشر في نظرك أعظم أم الله! ثم اسأل

نفسك: ما الذي تجنيه من التدخين؟!

كن صادقًا مع نفسك وستجيب: لا شيء .. لا فائدة .. بل ضرر محض! ضرر عاجل وآجل!

اسأل نفسك يا بني: بماذا ستجيب حينما تسأل يوم القيامة عن مالك فيمَ أنفقته؟! كيف سيكون جوابك وأنت تنفق منه لشراء الدخان؟! هذا المال الذي رزقك الله إياه .. وأنعم به عليك في الوقت الذي حُرم منه غيرك .. تصرفه في معصيته؟!

استمع إلى أحد السلف حينما سُئل: من أشد الناس صراخًا يوم القيامة؟ قال: رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله!

وأولئك الذين يبذلون حماسهم من أجل انتصارات فريق في لعبة من الألعاب وتجد ثقافة أحدهم لا تتعدى معرفة أسماء اللاعبين وقوانين الرياضة فقط!

وأدهى من ذلك وأمر التعصب لفئة دون أخرى، وهذا بحد ذاته يخل بعقيدتهم حيث يكون ولاؤهم أحيانًا لغير المسلمين، لا لشيء إلا لتعصبهم لفريقهم!

قال أحمد وقد تلوَّن وجهه وعض على شفته هازًّا رأسه باستغراب شديد!

أو ليس الإسلام يحب الرياضة والترويح؟!

نعم يا بني .. الإسلام هو دين القوة البدنية والمعنوية.

الدين يا بني يدعو إلى الرياضة ويحث عليها، ولكنها الرياضة

التي تربي الأجسام وتصفي العقول وتربي الأجيال تربية خُلقية سليمة يستطيع المسلم أن يكون قويًا في إيمانه .. في أخلاقه .. في عسكريته .. لكن رياضة أولئك رياضة عصبية ومغامرة وتضييع وقت ومشاهدة للاعبين لا ممارسة لها .. ولذلك انظر إلى هؤلاء هل قدموا شيئًا؟!

ماذا قدموا أيضًا لمجتمعهم – بل ماذا قدموا لأوطانهم؟!

وفوق ذلك يا حبيبي قضاؤهم أوقاتًا طائلة في أمور لا فائدة منها، فبأي وجه سيقابل هؤلاء ربهم حينما يسألهم عن شبابهم فيم أبلوه .. وعن عمرهم فيمَ أفنوه؟!

دخل من باب المسجد الأمامي رجل وقور .. ألقى عليهما السلام ثم كبر ليؤدي تحية المسجد .. اقترب أبو محمد أكثر من الشاب وواصل حديثه بصوت منخفض: هناك يا بُني الكثير من النعم أيضًا سنُسأل عنها .. كنعمة العقل التي نتميز به عن البهائم والحيوان، ونعرف به الحلال من الحرام، ونفرق به بين ما يجلب لنا العافية وما يجلب لنا الأمراض والأسقام.

إن هذه النعم يا بني لا بد أن نقابلها بالشكر لتدوم وتبقى، ومن شركها أن نستخدمها في طاعة الله .. والله – عز وجل – قد وعد عباده الشاكرين بالزيادة .. ووعد الجاحدين بالخسارة والنقصان .. ونحن يا بُني ليس بيننا وبين ربنا نسبٌ ولا قربى .. ولكن إخلاص بالعمل وإتقان .. وذكرٌ يتواطأ عليه القلب واللسان.

لا بد يا بني أن نستشعر الملائكة .. الكرام الكاتبين .. عن يميننا

وعن شمالنا يسجلون كل صغيرة وكبيرة في صحائف أعمالنا.

نستشعر أننا سنرى ما في تلك الصحائف لا محالة .. سنراها يوم تُبلى السرائر .. وفي ذلك اليوم، في تلك اللحظات التي ليس لأحد منا قوة ولا ناصر إلا من الله .. في تلك اللحظات سينادى كل واحد منا باسمه .. ينادى على رؤوس الخلائق .. فإن كنا من أهل الخير والصلاح أتينا بكل فخر وسرور لنتناول كتابنا بيميننا، وإن كنا غير ذلك أخذناه بشمالنا .. أو من وراء ظهورنا.

ونقول نحن في غاية التحسر والندم: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ**﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

في تلك اللحظات العصيبة وفي ذلك اليوم المشهود .. لا أحد يستطيع أن يمدك بحسنة واحدة .. أمك .. أبوك .. أعز أصدقائك .. لا أحد يستطيع تقديم أدنى إعانة لك مهما كانت محبته لك وشفقته عليك!!

شعر أحمد بقشعريرة تسري في جسده، فانتفض كالفرخ المبلل! تخيل نفسه في ذلك اليوم .. في ذلك الموقف الرهيب .. تخيل موقفه وهو يتناول صحيفته .. تمثلت له جهنم بلهيبها ونيرانها .. تمثل له أهلها وهم يعالجون السلاسل والأغلال .. يصطرخون ويتضاغون .. ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾ [فاطر: ٣٧].

لم يزل أبو محمد يواصل حديثه ولسان حاله يقول: لنطرق على

الحديد ما دام ساخنًا، فقد لمح عيني أحمد المغـــرورقتين بالـــدموع وتعابير وجهه التي بدا التأثر واضحًا عليها.

أنهى الرجل صلاته .. ثم تناول مصحفًا واتكأ علـــى ســـارية المسجد، وقد أثار فضوله منظر ذلك الشاب الغريب!! لكنـــه لاذ بالقراءة منتظرًا موعد الأذان.

لم يرغب أبو محمد أن يلتفت للسلام على المؤذن خشـــية أن ينقطع حديثه مع أحمد، فأمسك بيده بقوة وبدأ يحدثه بلهجة الجاد:

يا بني، إن المؤمن حينما يصاحبه هذا الشعور ليحـــرص كـــل الحرص ألا تفوته لحظة واحدة من لحظات حياته دون أن يتزود بها لذلك اليوم .. إن هذه الكف المتوضئة الطاهرة .. وهذه الأصـــابع التي تشهد بوحدانية الله لتتورع عن الإمساك بسيجارة يبغضها الله .. بل هي تمسك بهذا السواك الذي يطهر فاك .. ويُرضي ربـــك ومولاك؛ فتسعد في أولاك وأخراك.

فإذا دعتك نفسك إلى ذلك الداء فتوضأ واهرع للصلاة واسأل الله النجاة .. فارق مكانك الذي أنت فيه .. اذهب إلى المسجد .. اقرأ القرآن وسأدلك على بعض الشباب الأخيار لتجتمع بهـــم .. تشاركهم حلقات الذكر .. والرحلات.

حاول أن تبتعد عن الأماكن التي تنتشر فيها رائحة الدخان .. وأشغل نفسك بالقراءة .. بالرياضة .. بالهوايات المباحة .. لا تدع للشيطان سبيلاً على نفسك؛ فتكون ممن يقول: لقد اتخذت هـــذا الأمر عادة ولا أستطيع تركه .. لا يا بني، إن من يقول ذلك هـــو

الذي يترك التدخين من أجل الأهل .. من أجل المجتمـــع .. مـــن يتركه حفاظًا على صحته .. أو حفاظًا على ماله!! أما أنت فإنـــك لم تتركه إلا من أجل ربك فقط! فإن وجدت مشقة أو صعوبة فإن ذلك سيكون في البداية فقط .. ثم تستحيل تلك المشقة إلى حلاوة ولذة تجدها في قلبك.

ارتفع صوت المؤذن .. الله أكبر .. الله أكبر.

فطفقا يرددان خلفه بخشوع .. الله أكبر.

مضى على سفر والده أكثر من شهر .. وقد سمع من أمه أنـــه لن يعود إلا في منتصف الشهر القادم .. لقد شغله أمرُ أبيه كثيرًا.

متى سينتهي من تلك الأسفار؟! ولو افترض أنه انتهى منها فهل يا ترى سيكون بيننا حسٌّ ومعنى؟!

أم أنه اعتاد ارتياد الفنادق فظن أن بيتنا كالفندق لا يأتي إليه إلا ليأكل أو ينام!

كان في حديقة منزلهم الواسعة يودع الشمس التي بدأت تلملم أذيالها معلنة الرحيل، وقد تركت خلفها بقايا حمرة موحشة

أطلق لبصره العِنان .. بدأ يفتش في الماضي ما بين ركام أيامـــه وتكدس أحداثه .. لاح له وميض من النـــور يصـــارع الســـواد المتراكم.

الآن عقارب الساعة في داخلي تشير إلى الواحد والعشرين عامًا .. قضيتها دون إنجاز يستحق الذكر.

لم أتذكر أن والدي بذل أدنى مجهود من أجل تربيتي .. بل إنه قد هيأ لي أسباب الضياع دون أن يبين لي النافع منها من الضار .. لكنه في نفس الوقت لا يحتمل أدنى خطأ أقع فيه .. لم أتذكر أنه في يوم من الأيام وجه لي نصيحة أتقوى بها على معارك هذه الحياة الطاحنة.

ولكي لا أكون جائرًا في حكمي .. فلم أنسَ حرصه الشديد على تفوقنا في الدراسة .. فما أن تُقبل أيام الامتحانات حتى تعلن حالة الطوارئ في المنزل! لا دخول، لا خروج حتى أجهزة البث وأجهزة التسلية على اختلافها تُغلق مع فرض الرقابة عليها .. حتى بدا لنا شبح الامتحان أسودَ بغيضًا يهدد فرحتنا ويكتم أنفاسنا .. وما زلت أذكر كلماته الناصحة التي انهالت عليَّ عندما رفضت دخول القسم الذي حدده هو لي في الجامعة .. وقد كان ذلك القسم لا يوافق طموحي؛ فرفضت موضحًا له السبب .. وعندها أقام الدنيا في وجهي و لم يقعدها حتى هذه الساعة .. فلا ينظر إلي إلا شزرًا .. ولا يحدثني إلا تعنيفًا .. يلقي إلي الأوامر وكأننا في ثكنة عسكرية!!

لقد نبت لحمي وشب عظمي على أمور لا تؤهلني لمواجهة أقل المعضلات لا أذكر أن أحدًا في منزلنا قال لي: هذا حلال أو حرام، كنت عندما أغضب والدي أشعر بشيء من القلق وعدم الرضا عن نفسي دون أن أستشعر أن ذلك يغضب ربي.

كانت شقيقته الصغيرة تقبع في زاوية الحديقة تناغي عروستها

ذات العيون الزرقاء والشعر الكستنائي المنفوش تحتضنها تارة وتحادثها تارة اقتربت من أخيها الذي كان يسبح في بحر ذكرياته .. فبدا كمن يحدث شخصًا أمامه فيشير بيده مستفهمًا:

هل أحدٌ يصدق أن الصلاة التي هي الفارق بين الإسلام والكفر لم يذكرني أحد بقيمتها .. وإنما كنت أصليها أحيانًا كعادة .. لم أكن أذهب إلى المسجد إلا مجاملة حينما أضطر إلى مصانعة الناس وأنا على غير طهارة لشدة جهلي بأحكامها .. آه كم كنت أعيش تلك الجهالة في عصر يعج بالعلوم والتكنولوجيا؟!

ليتك تعود يا أبي .. ليتك تعود ولكن بأفضل مما ذهبت به .. قالها بصوت مسموع.

أجابته الصغيرة بكل براءة: لا تقلق يا أحمد .. سيعود أبي قريبًا .. سيُحضر لي لعبة كبيرة.

لم يكن يشعر بوجودها .. التفت إليها مستغربًا، ثم انحنى ليحملها فوق كتفيه وقد ارتفعت ضحكاتها وهي تتشبث به بقوة .. مضى في تفكيره الجاد .. حتى توصل إلى فكرة اطمأن إليها.

وفي الليلة التي تسبق مجيء والده .. جلس في غرفته وقد كان الجو هادئًا .. ليس ثمة حركة إلا من نسمات الهواء اللطيفة التي تتسلل بنعومة من جهاز التكييف لتداعب الستائر المخملية .. جميع المصابيح مطفأة إلا ضوء المصباح الصغير المتسلط على مكتبه .. لقد أعد ورقة اختارها بعناية .. وبعد لحظات من التفكير أمسك بقلمه ثم بدأ يسطر كلماته.

والدي العزيز..

ها هي ذي كلماتي .. كم ترددت كثيرًا في تسطيرها ولا أدري حتى الآن هل سأجرؤ على تقديمها لك أم لا؟! لقد فكرت أن أشافهك بها .. لكني كلما أردت أن أقول شيئًا تعثرت الكلمات في فمي، وتبعثرت الحروف على شفتي.

أبتي .. إنني أخشى أن أجرح مشاعرك أو أُسيء من حيث أريد الإصلاح .. إنه شيء أُخفيه في نفسي خجلاً أن أنطق به، وأغض بصري حياءً منك فتتراجع الكلمات في صدري حيبةً لك.

رفع رأسه ليأخذ نفسًا عميقًا علَّ الهواء أن يطرد ما بداخله، ثم انحنى ليُكمل الكتابة.

كم هو صعب يا أبي أن أقول لك ما أريد صراحة ولكن لقد أعيتني والله السُّبل، وليس ثمة حلٌ آخر.

أبي: إنني أدرك مدى حبك لي ولإخوتي .. أدرك مدى اجتهادك لتجعل منا أبناء متفوقين في دراستهم فجزاك الله عنا خير الجزاء.

أبي الغالي:

إن كنت أخطأتُ في حقك فسامحني، واعف عني؛ علَّ الله أن يعفو عني .. فلقد ندمت- والله- أشد الندم على كل ما حدث مني.

وها أنا أفتح صفحة جديدة بيضاء لأجدد معك البر والود

والصفاء، أفتح صفحة جديدة بعد أن مزقت جميع صفحاتي السابقة .. ولعل لي عذرًا فيما بدر مني، وهو أنك يا والـــدي الحبيـــب .. ألقيتني في بحر متلاطم الأمواج وأنا لا أجيد السباحة، ولا أملـــك طوق النجاة!

كيف تريد لمن هو مثلي أن ينجو من الغرق؟!

فما أشبه حالي بقول الشاعر:

ألقاه في الـــيم مكتفوفًـــا وقـــال لـــه

إيـــــاك .. إيـــــاك أن تبتـــــل بالمـــــاء

ولقد فتشت في نفسي وقلبت صفحات أيامي فلـــم أجـــد لي موقعًا في خارطة اهتماماتك .. أسفارك المتكـــررة ...أعمالـــك في الشركة .. رفاقك .. سهرك .. كل هؤلاء أخذوك منا، وأبعدوك عنا.

والدي

أتمنى أن أضع رأسي على صدرك فأبث إليك همومي .. وأفشي إليك بآلامي وأحلامي .. أحلم أن أراك تمازحني .. تلاطفني.

أبي الغالي ..

لا أستطيع أن أعبر عن شكري لك على ما تبذله مـــن أجـــل راحة جسمي .. فقد وفرت لي أفضل المآكل والمشارب، وأسكنتني أهنأ المساكن .. ولكن ما زلت أشعر أن هناك فراغًـــا في داخلـــي يحتاج إلى غذاء!!

ولعلك أن تأذن لي أن أتمثل بهذين البيتين:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته
أتعبت جسمك فيما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان!

كم تمنيت يا والدي لو كنت تضع كفك بكفي ونخرج سويًا لأداء الصلاة .. أو أنك كنت بجواري في المسجد تسألني عن مقدار حفظي .. تشجعني .. تشد من أزري إن أصابني الفتور .. تنتقي لي جليسًا ذا خلق ودين يرافقني في الخير، ويحذرني من الشر .. أو أنك أهديتني كتابًا أو شريطًا نافعًا ينير لي الطريق أو يصحح لي المسار.

وإني والله ليقشعر بدني ويقف شعر رأسي كلما قرأت أو سمعت قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

وكلما قرأت قوله ﷺ: «**ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته .. إلا لم يجد رائحة الجنة**» [رواه البخاري].

لقد نشأت يا أبي وكأنني عبد للدنيا؛ فصارت هي محط آمالي ومنتهى أحلامي .. وما زلت أذكر ذلك اليوم الذي عنفتني فيه وضربتني لأني أخفقت في إحدى الامتحانات .. ولكنك يا والدي لم تلمني مجرد لوم على إهمالي بل تركي للصلاة!!

اسمح لي يا والدي إن قسوت في عباراتي .. فما دعاني إلى ذلك إلا خوفي عليك!! لا أريد أن تعمر دنياك بخراب آخرتك، فتفضل حطام الدنيا الزائل على النعيم المقيم .. ورسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة .. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره في عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**».

و لم أزل أذكر ذلك اليوم الذي أردت فيه إسعادنا فأحضرت لنا ذلك الجهاز ورفعته فوق سطح المنزل بكل فخر واعتزاز، زاعمًا أنه سيفتح مداركنا، ويُطلعنا على العالم كله؛ فتزداد ثقافتنا ووعينا.

ولكنك يا والدي – وأقولها بكل حزن وأسف – لكنك هيأت لنا جو المعصية، فلا ترى أعيننا إلا ما يفتنها، ولا تسمع آذاننا إلا ما يطربها، فألهبت في نفوسنا نيران الشهوة، وكادت أن تُحرق ما تبقى من إيماننا وحيائنا.

فيا والدي .. أُريد أن أُناقشك في هذا الأمر الآن .. الآن قبل يوم القيامة.

بدأ قلمه يكتب بصعوبة – أخذ يهزه ويكلمه كأنه إنسان.

ما الذي أصابك يا قلمي؟!

أنا أعلم جيدًا أنني أسهرتك معي .. ولكن لا بأس .. لم يبق إلا القليل .. واصِلْ معي أيها القلم.

وبعد محاولات .. عاد القلم إلى الكتابة.

والدي العزيز :

إني لا أريد أن أشكو منك ولكني أشكو إليك!!

أشكو إليك نفسي التي لا تستطيع مواجهة الحياة.

أشعر وأنا أسير فيها .. بأنني أشبه ما أكون بمن يقف وسط المعركة وهو أعزل من السلاح!

وعندما عدت بالذاكرة إلى الوراء وجدت أنني نشأت مسلوب الإرادة والتفكير .. ترعرعت وأنا أشعر أني كقطعة من قطع الأثاث في المنزل .. لا اعتبار لي ولا رأي .. أفكاري محكوم عليها بالفشل!

لماذا يا والدي تنظر إلي كطفل خداج؟! ألا ترى دم الرجولة وهو يتحرك بقوة في عروقي؟!

ألا ترى أني قد عبرت ميدان الحياة، وأمضيت في مضمارها السنين تلو السنين .. وها أنا يا والدي قد فارقت العشرين!

ألا ترى أن في صدري قلبًا يخفق، وفي رأسي عقلاً يفكر ويفقه؟!

فلماذا تُلغي رأيي وتشاور رفقاءك؟!

كيف إذن تريدني أن أحسن الاختيار أو أصنع لنفسي القرار!

كيف تنمو مداركي .. كيف أشق طريقي بثقة وإصرار!

والذي يقصم ظهري يا والدي أنك كثيرًا ما تكيل لي الشتم والسب أمام الآخرين حتى أصبحت أمشي منكسر الخاطر .. منهزم

النفس، وأنت تعلم ولا يخفى على مثلك طيش الشباب وجنون المراهقة، فلماذا تفسر ذلك بأنه تمرد وعصيان؟!

ومع ذلك .. لا سبيل لديك للعتاب، ولا فرصة للاعتذار.

أين الرفق .. أين اللين والمرونة التي تقابل بها الأبعدين؟!

ولا أكتمك سرًا يا أبي إنني كلما رشقتني بوابل كلماتك الجارحة؛ أحسستُ وكأن رصاصة تخترق ضلوعي فتسري حرارتها حتى تسكن في قلبي .. وأنَّى لها أن تخرج وبيتنا لا يمرّ عليه أيام إلا ورحى الخلافات تطحن بهجتنا، فكثيرًا ما كنت أتمنى أن أكون طوع أمرك وأمر والدتي، ولكن كيف يكون ذلك؟ كم مرة أقف مذهولاً من رغباتكما المتباينة وأقوالكما المتضاربة .. فأنت تأمر بأمر ووالدتي تأمر بغيره .. فمتى تكفان عن المخاصمة؟ ومتى تستقيمان على رأي؟ ومتى تحسنان فن المداراة، وتوحدان وجهات النظر؟!

أرجوك يا والدي، وأنت الذي تُمسك بزمام الأمور لا تجعلنا نهبًا للصراع وأسرى للخلافات، فلقد أمضيت وقتًا ليس بالقصير أخرج من البيت فارًّا بنفسي من براكينكما الثائرة .. فأسير على الأرض كمن كبَّلتْه القيود مع أني حر طليق .. فكم تقاذفتني الأهواء .. وكم تلاطمت بي الأمواج، وضاقت علي الأرض بما رحبت، وضاقت علي نفسي.

ولقد قيض الله لي من أوليائه الصالحين من ينتشلني مما أنا فيه، ويدلني على بَرِّ الأمان وطريق الجنان .. وها أنا – بحمد الله –

أتذوق طعم الطمأنينة والإيمان .. لقد هجرت بفضل الله كل معصية حتى تركت الدخان.

وكل ما أتمناه الآن أن أعيش معك في سعادة وأمان من كل ما ينغص العيش ويغضب الرحمن، كما أسأل الله أن يجمعنا بك في دار خير من هذه الدار .. إذ لا شقاء ولا أحزان .. كما أسأله أن يجعلني وإياك ممن قال فيهم: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الطور: ٥٢].

إنه كريم منان.

وصلى الله على نبينا محمد،،،

ابنك المشفق/ أحمد